**المحاضرة الثامنة : الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية( فن الترسل)**

**أولا : المفهوم والنشأة**

**الرسائل فن أدبي نثري عرف منذ القدم ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة عندما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمة العطاء في مختلف الميادين والمجالات**.و لم تكن الكتابة شائعة بين العرب **في الجاهلية،** ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلة الدواعي إليها. وإنما ازدهر عندهم الشعر والخطابة والحكم. وعندما **جاء الإسلام** تغيرت الحال و ظهرت مفاهيم جديدة لم تكن معروفة من قبل فرسول الله ـ صلى الله عليه و سلم ـ كان يشجّع المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وقد اتخذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـكُتَّابًا يكتبون له القرآن الكريم، ويكتبون رسائله التي كان يبعث بها إلى رؤساء القبائل، وزُعَماء المناطق، وملوك الدول و قد كانت الرسالة أول اتصال بالعالم الخارجي للرسول الكريم و لم يكن لا الشِّعر و لا الخطابة قادرين على أداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة حين تنقل ما يتصل بسياسة الدولة من مراسيم سياسية أو توجيهات أوتعليمات إدارية ومن هذا التاريخ نافس الكاتبُ الشاعرَ والخطيب وأصبح له منزلة خاصةٌ.و استمر تشجيع الخلفاء الراشدين على تعلم القراءة و الكتابة و اتخذوا لهم كتابا هم أيضاً يكتبون إلى الولاة وقادة الجيوش الفاتحة التي انتشرت في مختلف الأصقاع لنشر رسالة التوحيد.

و **رسائل صدر الإسلام** عموما« غالبًا ما تبدأ بالبسملة ثم يأتي بعدها تعابير من قبيل :من محمد رسول الله أو من خليفة رسول الله ،أو من أمير المؤمنين .وقد تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة مثل:"هذا كتاب من محمد رسول الله ".وإذا كانت الرسالة موجهة إلى مسلم فإنَّ خير ما تستهل به "سلام الله عليك".أما إذا كانت موجهة لغير المسلم فإن ما تستهل به

هو"السلام على من اتبع الهدى" و تأتي بعد السلام مباشرة التحميدات مثل :"فإني أحمد الله"أو أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو "وقد يرد فيها ذكر التشهد أيضًا أو يكتفي فيها بعبارة :أما بعد.

و عندما آل الحكم إلى بني أمية وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ ديوان الرسائل هذا الديوان يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة في بداية الأمر ـهو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغْلبُ عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنّع كما حدث ذلك لاحقا و شهد فنُّ الكتابة نقلة ً كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحي الكاتب. فقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل:"بدئت الكتابة بعبد الحميد ".

و قال عنه جرجي زيدان في "تاريخ آداب اللغة العربية"(فتحت الرسائل بعبد الحميد و ختمت بابن العميد) ومن رسائل عبد الحميد المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة.

وعندما قامت الدولة العباسية أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم ولا غرابة في هذا، لأن العمل في ديوان الرسائل أصبح مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول على ولاية أحد الأقاليم، بل إنه غدا مؤهِّلاً للوصول إلى منصب الوزارة، ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم ممن أوصلتهم هذه الصنعة وهذا الفن إلى ما كانوا يطمحون إليه من نيل لأعلى المناصب فقد كان لا يصل إلى تولي ديوان الرسائل إلا من حسنت سيرته وذاعت شهرته و كان فارس بلاغة و صاحب إتقان و جودة في تدبيج و تطريز الرسائل.

وقد بلغ فنُّ كتابة الرسائل أَوْجَهُ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنهما يمثلان الفترة الذهبية لهذا الفن.

غير أن هذه الصناعة أصاب سوقَهِا الكسادُ في عصور الضعف حتى غدت الرسائل ضربا من التفنن في جمع الألفاظ و رصها إلى بعضها، ثم ابتليت الأمة بعد ذلك باستعمار بغيض ضعفت أثناءه الكتابة عموما والرسائل خصوصا، وعمَّ هذا الضعف حتى كاد فن الترسل أن يمّحي لولا بعض الأدباء الذين أبقوا على حياته بفضل ما سطرته أقلامُهم من روائِعَ.

**ثانيا :أنواع الرسائل**

**1ـ الرسالة الديوانية**:

تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل، الرسائل الديوانية نسبة إليه. وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق عن الرسالة الديوانية:وهي الصادرة عن ديوان الخليفة، و الأمير يوجهها إلى ولاته و عماله و قادة جيوشه، بل إلى أعدائه أحيانًا منذرًا متوعدًا،

و تتنوع هذه الرسائل ، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك.

**ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا**: رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته،واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية،فكان الكاتب يضمنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدار الآخرة.

**موضوعاتها:**

تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات عديدة و متنوعة، فكان منها ما ذكرنا آنفًا أي رسائل الجهاد ،وكان منها أيضا التي ذكرت الفتن والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد التشتت و التمزق الذي أصابها، كما كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية،و قد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب و التطويل،و كان الكاتب يستهلها بالتحميد،و كثيرًا ما يُطيل في تحميده حتى ليشبه خطبة دينية قائمة بذاتها

و يتصل بهذا اللون من الرسائل ما كتبه كتاب الدواوين« في التهاني بما تحقق من فتوحات و ظفر على أعداء المسلمين،وكان استهلال رسائل التهنئة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب

حتى لتكاد تقترب في هذه السمة من الخطابة الدينية التي تجري على هذه الطريقة من استخدام التحميدات والإكثار منها.

و تضمنت الرسائل الديوانية أوامر الخلفاء بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم،و كانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة، ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون و أحوال الرعية و العمل على استقرار الأمور.

**خصائصها:**

عمل النقاد و الأدباء القدامى على ضبط القواعد التي ينبغي للكتاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم، و تعتبر رسالة عبد الحميد إلى الكتاب الدستور الذي سنَّ هذه القواعد وأصبحت بذلك محترمة و متبعة و قد وضع عبد الحميد القواعد الفنية التي سار عليها كتاب الرسائل الديوانية بعده؛ وقد ظلت طريقته تُحْتذى لدى كثير من كتاب الدواوين في القرن الثالث للهجرة، وكان من هذه القواعد« التزام الكاتب في صدر رسالته بالتحميدات خاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد،و قد طالت هذه التحميدات في بعض الرسائل حتى صارت أشبه بخطبة دينية مستقلة مما جعل بعض القدماء يجتزئون بالتحميدات عن مضمون الرسائل.

كما تضمنت الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء و حجج الكتاب،واتجه بعضهم إلى تضمين أبيات الشعر ،وبذلك صارت الرسالة الديوانية معرضًا لإظهار ثقافة الكاتب و معارفه في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية.

**2ـ الرسائل الإخوانية:**

وفي مقابل الترسل الديواني، يوجد نوع آخر من الترسل يعرف بالترسـل الإخواني،وهو الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبّر بها كاتبها عن الشوق و الحنين للأهل و الأصحاب.

يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل: الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء .

وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعًاهي: «التهاني،والتعازي،والتهادي،والشفاعات،والتشوق،والاستزارة،وخطابالمودة،وخطبةالنساء،والاستعطاف،والاعتذار،الشكوى،واستماحةالحوائج، والشكر والعتاب،والسؤال عن حال المريض،والأخبار،و المداعبة.

و لانجد في طيات الكتب التي تحدثت عن هذا النوع من الرسائل أية إشارة إلى ما كتب في العصر الجاهلي،ولعل السبب يعود إلى قلة الكتاب في ذلك الزمن أو إلى عدم اهتمام الرواة بما كتب لانشغالهم بالشعر الذي روي منه شيء كثير وإلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك.وأما في صدر الإسلام« فإن ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي صلى الله عليه وسلم ـ يعزي فيها معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد الأموي من هذا النوع وما بقي منها فهو في النصح والإرشاد والعتاب والتعزية والاعتذار والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء.

و الرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من **الرسائل وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة ؛فصوروا فيها ما يعتورهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح؛وما يداخلهم من رضا وغضب، واتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والفراق، و الاستعطاف والاعتذار وغير ذلك، وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل،فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛فجمعت بين المتعة الوجدانية،و المتعة الفنية،و أحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم.**

**موضوعاتها:**

تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول **الجانب الإنساني** وما يرتبط به من **صداقة وأخوة، وعواطف نبيلة**، وما يتصل **بالصداقة** كما عبرت عما كان بين بعض الأصدقاء من تبادل للهدايا على اختلافها،لكن يبقى موضوع الصداقة ... من أبرز الموضوعات التي اجتذبت الكتاب، فعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، وأشادوا بروابط الإخاء والمودة التي تنعقد بينهم.

وجدير بالذكر أن الرسائل الإخوانية لم يشترط النقاد في صوغها وبنائها شروطًا دقيقة ملزمة،وإنما أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد،لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب،مما جعل النقاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتاب الرسائل الإخوانية،كما يبينه أحمد بدوي«وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية،ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة»( 28) وهذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر أدبية وأكثر جمالاً من الترسل الديواني وجعل رسائله أدخل في الأدب،وأقَبَلُ للتخييل و الصور البيانية،والصنعة البديعية،تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم،وتنافس الشعر في جل أغراضه.

**ثالثا :خصائصها الفنية من حيث الشكل والمضمون:**

بعد أن تحدثنا عن أنواع الترسل،سنتكلم عن الخصائص البنائية لهذه الرسائل وما يشتمل عليه كل جزء من أجزاء الرسالة؛من المقدمات إلى المضمون إلى الخاتمة وما ينبغي أن تشتمل عليه تلك الأجزاء.

**1ـ بنية المقدمات:**

عرف البناء الهيكل للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي،منذ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب إلى موسوعة أبي العباس القلقشندي مرورًا بغيرهما من المؤلفات التي نظَّرت لهذا اللون الأدبي،وعن هذا الاختلاف يقول الكلاعي:«و نظرت ـ أعزك الله ـ في صور الرسائل واستفتاحاتها فوجدتها أيضًا تختلف»( 31)ومقدمات الرسائل ـ ديوانية كانت أو وإخوانية ـ تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي على المُرسِل والمرسَل إليه،وتتضمن الدعاء،إضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام.

وتختلف استفتاحات الرسائل،ويختار الاستفتاح المناسب لمنزلة المرسل إليه فقد يذكر مقدمًا عن المرسِل بصيغة: لفلان من فلان.وقد يؤخر ذكره فيكتب: من فلان لفلان،وتكون في حالات أخرى بإيراد كنية المرسل إليه أو رتبته،غير أن كل الاستفتاحات كان يراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية وهي أول ما يطرق السمع من الكلام،فيكون داعية للانشراح و إثارة انتباه المتلقي،وقد كان يُلْجَأُ إلى المنظوم فتُبدأُ الرسالة بأبيات شعرية لكاتبها أو لغيره تدل على المضمون العام لها و تختصره في كلماتها،وكثيرًا ما يلجأ الكتاب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعها ومقدماتها كعملية ربط وحسن تخلص.

**2 ـ بنية المضامين:**

ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم وبحسن تخلص لِطَرْقِ الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم،وغالبًا يقع حسن التخلص بصيغة:**أما بعد** وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة،وقد تنوعت المضامين في الرسائل بنوعيها ـ الإخواني والديواني ـ ومست مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية،فكان كتاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء،ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك.

وفي الإخوانية يتبادل الأصدقاء الرسائل ويتطرقون فيها إلى الشوق والاعتذار والتهنئة بالزواج والمولود الجديد والتعزية والشكر و الدعوة إلى حضور مناسبة من المناسبات وغيرها من الموضوعات.

**خاتمة** **الرسالة** هي آخر شيء فيها ،وتكون في الغالب بلفظ "السلام"أو "السلام ورحمة الله تعالى وبركاته"وتكون مسبوقةً بالدعاء،كما تشتمل كثيرٌ من الرسائل على التأريخ باليوم والشهر والسنة كعلامة على انتهاء الرسالة وإن كانت بعض الرسائل تؤرخ في البداية،ويتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلومًا،ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنه آخر ما يتبقى في الأسماع

على أن هذه العناصر البانية للهيكل العام للرسائل غير ثابتة ومستقرة، فقد يخرج الكتاب عنها في بعض الحالات.